الفصل التاسع

وصف النبي

محمد سيد الكونين والثقلين … والفريقين من عُرب ومن عجم

نبينا الآمر الناهي فلا أحد … أبر في قول لا منه ولا نعم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته … لكل هول من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به … مستمسكون بحبل غير منفصم

فاق النبيين في خَلق وفي خُلق … ولم يدانوه في علم ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتمس … غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم … من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فهو الذي تمّ معناه وصورته … ثمّ اصطفاه حبيبا بارىء النّسم

منزه عن شريك في محاسنه … فجوهر الحسن فيه غير منقسم

○ **الإمام البوصيري**

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا … منها وما يتعشق الكبراء

لو لم تقم دينا لقامت وحدها … دينا تضيء بنوره الآناء

زانتك في الخلق العظيم شمائل … يغرى بهن ويولع الكرماء

أما الجمال فأنت شمس سمائه … وملاحة الصديق منك إياء

والحسن من كرم الوجوه وخيره … ما أوتي القواد والزعماء

○ **أحمد شوقي**

هل إذا عرفنا أوصاف النبي بالتفصيل . هل هذا سيزيدنا معرفة به وقربا منه ؟

وهل تفيدنا أوصاف النبي مثل طريقة مشيته أو ملامح وجهه وطوله وعرضه ولون بشرته ولون عينيه ... إلخ ؟

نعم .

لأن للشخصية الإنسانية مكونين . مكون داخلي . ومكون خارجي . ولن يكتمل معرفتك للشخصية إلا بمعرفة هذين المكونين ، فإذا قيل لك عن شخص ما أنه صادق وأمين ووفيٌ وشجاع وجرئ ..فستظل تلك الأوصاف أوصاف مجردة ومعاني هائمة إلى أن ترى ذلك الشخص أمامك يتحرك ويتنفس ويسير على قدمين حينئذ تتحول تلك الأوصاف وتلك المعاني إلى شيء حقيقي أمامك تدركه حواسك . وتتحول تلك الأوصاف والمعاني إلى مظاهر للحياة تؤثر كأشد ما يكون التأثير وتفعل فيمن حولها كأقوى ما يكون الفعل .

أيضا لابد وأن يكون الداخل والخارج على وفاق . بمعنى أن الصادق والأمين والوفي في الغالب تكون هناك دلائل وإمارات لا تخطئها عين الفاحص على مظهر الشخصية . بل في أحوال كثيرة نحكم على داخل الشخصية بما نراه من صفاتها وملامحها الخارجية .

والذي يغفل عن إدراك تلك العلاقة الوثيقة بين المظهر الخارجي للشخصية وحقيقتها هو جاهل كما عبرت الآية الكريمة:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) ﴾ البقرة: ٢٧٣

والسمة هي العلامة والأمارة، وهي التي تقودك - من خلال الفحص والدراسة - إلى حقيقة الشخصية، وإن لم يكن الإنسان على دراية بحقيقة الملامح وقسمات الوجه وما تدل عليه فقد يخدع. فالناظر إلى هؤلاء يحسبهم أغنياء، وهم في حقيقة الأمر ليسوا بأغنياء، ولكن التعفف هو الذي أظهرهم بهذا المنظر، وحينما نتفقد أحوالهم وظروفهم وأوضاعهم نجد أنهم فقراء، ولكنهم سلكوا مسلك الغني فالفقر لم يقدض ويقيد ملامح الوجوه، كما أنه لم يستعبد نفوسهم، فلديهم من العزة والكرامة والكبرياء أن لا يطلبوا العون أو المساعدة من الآخرين. وليس من العسير على أي متفحص لملامح الوجه أن يدرك حقيقة ما تدل عليه، وملامح الإنسان كأشد ما تكون دلالة على حقيقته مهما حاول أن يحملها ما لا تحتمل؛ لأن هناك ارتباط وثيق بين ما يدور ويحدث في داخل النفس وما ينعكس على صفحة الوجه. والوجه - وهو أول ما يواجهك ويقابلك من الشخصية - ينبي عما في داخل النفس سواء كان خيرا كما في الآيات الكريمة

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ الفتح: ٢٩

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾
المطففين: ٢٢ - ٢٤

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ الغاشية: ٨ - ٩

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ عبس: ٣٨ - ٣٩

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٣

أو شرا كما في الآيات الكريمة:

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ﴾ الحج: ٧٢

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ عبس ٤٠ - ٤٢

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ الرحمن: ٤١

وليس ملامح الوجه هي فقط التي تدل على ما في داخل النفس وتكشف خبيئة تلك النفس بل أيضا طريقة مشي الشخص :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ الفرقان: ٦٣

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ الإسراء ٣٧

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ لقمان ١٨ - ١٩

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ القصص: ٢٥

والجسم - بصفة عامة - وما يتصف به من قوة واعتدال من الدلائل التي تساعد في سبر غور الشخصية فقد قال القرآن في حق طالوت

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٤٧

إذن المظهر الخارجي للشخصية لا نستطيع أن نغفله إذا كنا نريد دراسة الشخصية دراسة حقيقية ، أو أن نفهم الشخصية فهما صادقا .

والوصف عند العرب - في أغلبه - يقوم على العلاقات ، تلك العلاقات تمنع الذهن او الخيال أن يشتط ويخرج من الصورة الواقعية ، بل المغرقة فى الواقعية وفي الجاهلية حينما جسدوا وجسموا الآلهة سواء كان صنما أو وثنا ، لم يخلعوا عليها أو يمنحوها صفات غير واقعية بالمرة ، وحينما جاء الإسلام امتزج الوصف الواقعي لديهم بالوصف الخلقي ، أى واقعيا صادقا ، والصدق هو مطابقة الواقع فلم يصفوا الأشخاص بصفات غير إنسانية أو غير بشرية ، وإنما وصفوهم بصفاتهم

الحقيقية مع شيء من المبالغة . والمبالغة نوع من التجميل . والتجميل ليس خروجا عن الواقع أو الحقيقة وإنما هو محاولة إظهارها في أحسن وأفضل صورة .

ومن غريب الأمر أنه حينما ورد إلينا وصف النبي لم يتضمن أي نوع من المبالغة بأي صورة من الصور . وإنما هو وصف واقعي صادق كل الصدق لم يشوبه إحساس أو شعور بالتقديس أو محاولة الارتفاع به فوق مقام البشرية . وقد يرجع هذا لأمرين :

- فهمهم لحقيقة النبوة . وأنها لا تخرج شخص النبي عن كونه بشرا .
- أنهم شعروا وهم بإزاء وصفهم للنبي أنه لا بد وأن يتحروا الصدق والحقيقة بدون تحريف أو تبديل .

" لأن الذين وصفوه أحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرجوا في وصفه كما يتحرج المرء في الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة . فكانت أمانة الوصف هنا مزيجا من العطف والتدين وضربا من اتباع السنن وقضاء الفروض "[146]

٥ شكل وبنية النبي :

لابد وأن تكون بنية النبي قوية وبنيانه متماسكًا ومتينًا . قضى بهذا وفرضته المهام الجسام والأعباء الثقيلة التي كلف بها النبي وفرضت عليه فرضا وألزم بها إلزاما . تلك القوة سند له في حالتين :

- حينما يباشره الملك . أو يتنزل عليه الوحي . فكما عرفنا أن النبي تعرض – في بداية الوحي – إلى صدمة زلزلته زلزالا عظيما . والتغيرات التي تطرأ عليه – أثناء نزول الوحي عليه بعد ذلك – ويبصرها المحيطون به تدل على أنه يتعرض لمعاناة ومشقة لا مثيل لها . فقد كان يتفصد عرقا في اليوم الشاتي ويصدر منه – ﷺ – غطيط وأصوات تدل على مدى المعاناة.حتى

١٤٦- عبقرية محمد – عباس محمود العقاد – صفحة (١٦٢)

أنهم كانوا يضعون على وجهه غطاء كي لا يتأذون وهم يرون دلائل وإمارات المعاناة مرتسمة على ملامح وجهه .وهو مطالب بعد ذلك – وهو في أثناء تلك المعاناة والمشقة – أن يعي ما يلقيه إليه الملك ، أي أن حواسه ومداركه في كامل استعدادها وفي قمة يقظتها ، لذلك لابد أن يكون ليس قويا فحسب بل يتعدى هذا الوصف بمراحل كي يتحمل تلك المعاناة ، وإلا فإن لم يكن قويا بما فيه الكفاية فقد يتلف هذا الكيان وتتحلل تلك البنية " كانت أوصافه في غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذي يرشحه لتلقي الوحي والنبوة ، فكان حسا كله وحياة كله ، يراه من ينظر إليه فيرى فؤادا يقظا يتنبه لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية " [١٤٧]

فإذا تجاوز النبي مرحلة مباشرة الملك وتلقي عنه الوحي ، تأتي مر... أخرى ، وهي تبليغ ما أمر بتبليغه ، وكم من عقبات أقيمت بينه وبين هذا الأمر وكم من أزمات ومآزق ومؤامرات ومعارك ومكائد وضعها الأعداء والكارهون والكاشحون والحاقدون ، تحديات شرسة ، ولابد أن يواجهها ويقارعها وينتصر عليها ، هنا أيضا لابد أن يكون قويا وقادرا وصلبا في مواجهة كل هذا ، أضف إلى ذلك الجانب النفسي والضغط العصبي ، وهو لابد مؤثر على كيانه وبنيانه ، فهو دائم التفكير والتوجس والقلق تتعاوره مشاعر الحزن والاحباط واليأس والخوف ، كل هذا لا يمكن إنكار تأثيره على بنيته وكيانه .

- واصفو الرسول

أشهر هؤلاء هو الإمام على بن أبي طالب وأم معبد الخزاعية (عاتكة بنت خالد) وهند بن أبي هالة .

١٤٧- المصدر السابق – صفحة (١٥٦)

- **أولا** : الإمام على بن أبي طالب " أما صورته الشخصية ، المنظرَ والمظهر العام فكان كما وصفه ابن عمه (الإمام على) وسجل كتاب السيرة وبالذات الطبري في تاريخه والسهيلي في الروض الأنف ((..شابا وسيما ، معرب الملامح أزهر اللون، ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد... ضخم الرأس ، مبسوط الجبين مرسل الذقن ، عالي العنق ، عريض الصدر غليظ الكفين والقدمين يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجوان الواسعتان جاذبية وسحرا ، تحت أهداب حوالك ، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم ... وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام ، ويحسن الأصغاء ملتفتا إلى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه ، فإذا غضب لم يخنه حلمه بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين من أثر الغضب .
- **ثانيا** " .... وفيما سجل ابن عبد البر عن الرواة الثقاة في كتابه ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) فإن أم معبد الخزاعية ((عاتكة بنت خالد)) بعد أن رأت "محمدا" قالت تصفه " رأيت رجلا طاهر الوضاءة ، أبلج الوجه حسن الخلق ، وسيما قسيما ، في عينيه دعج ، وفي عنقه سطع ، وفي صوته صحل ، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن ... إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ... أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق فصل ، لا نزر ولا هذر ...ربعة ، لا بائن من طول ولا نقتحمه عين من قصر ..له رفقاء يحيطون به ، إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا لأمره " [١٤٨]

١٤٨- من مقال للأستاذ (نصر عبد اللطيف) بعنوان:النبي زوجا وأبا - مجلة الهلال العدد العاشر- أول اكتوبر ١٩٧٢

- **ثالثا** " يقول الحسن بن علي رضي الله عنهما : سألت هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ . وكان وصافا . وأنا أرجو أن يصف لي منه شيئا أتعلق به فقال : كان فخما مفخما : يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . أطول من المربوع وأقصر من المشذب . عظيم الهامة . رجل الشعر .عظيم الهامة . إن انفرقت عقيقته فرق . وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره . أزهر اللون واسع الجبين . أزج الحواجب سوابغ من غير قرن . بينهما عرق يدره الغضب أقنى العرنين . له نور يعلوه . ويحسبه من لم يتأمله أشم . كث اللحية . أدعج سهل الخدين ضليع الفم . أشنب . مفلج الأسنان . دقيق المسربة . كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة . معتدل الخلق . بادنا . متماسكا . سواء البطن والصدر . بعيد ما بين المنكبين . ضخم الكراديس . أنور المتجرد موصول م ن اللبة والسرة بشعر يجري كالخط . عاري الثديين. أشعر الذراعين والمنكبين وأعلي الصدر . طويل الزندين . رحب الراحة . شثن الكفين والقدمين . سائل الأطراف . عبل الذراعين خمصان الأخمصين مسيح القدمين . ينبو عنهما الماء إذا زال زال تقلعا . ويخطو تكفؤا ويمشي هونا . دريع المشية . إذا مشى كأنما ينحط من صبب ارتقاد وإذا التفت التفت جميعا . خافض الطرف . نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء . جل نظره الملاحظة يسوق أصحابه . ويبدأ من لقيه بالسلام " [149] .

معاني بعض الكلمات : بلج وجهه : تنضر سرورا /أطول من المربوع بين الطول والقصر. والربعة : الوسيط القامة / القسامة : الحسن والجمال . قسم الوجه : حسن فهو قسيم . والقسمة ملامح الوجه . ووسم : يوسم وسامة حمل وحسن حسنا وضيئا ثابتا فهو وسيم /المشذب : البائن الطول في نحافة / رجل الشعر : ليس بسبط ولا جعد وهو استرسال الشعر كأنه مسرح وهو ضد الجعودة /

١٤٩- محمد المثل الكامل – الأستاذ : محمد احمد جاد المولى – صفحة (٨ و ٩)

عقيقته : شعر رأسه / الحاجب الأزج : المقوس الطويل الوافر الشعر / القرن : اتصال شعر الحاجبين / القنا : أحديداب في الأنف / في صوته صحل : أي بحوحة وفي صفة رسول الله ﷺ حين وصفته (أم معبد) وفي صوته صحل كالبحة والصحل أيضا انشقاق الصوت وألا يكون مستقيما يزيد مرة ويستقيم أخرى / أدعج : شديد سواد الحدقة ودعجت العين دعجا : اشتد سواد سوادهما وبياض بياضهما واتسعت فهي دعجاء / ضليع الفم : واسعه عظيم أسنانه على التشبيه بالضلع وفي صفته ﷺ : ضليع الفم أي عظيمه وقيل واسعه . والعرب تحمد عظم الفم وسعته وتذم صغره وفي صفة منطقه ﷺ : أنه كان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه . وذلك لرحب شدقيه . والأشداق : جانب الفم مما تحت الخد . وكانت العرب تمتدح رحابة الشدقين لدلالتها على جهارة الصوت . شدق شدقا : اتسع شدقه . وكان ﷺ يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه . الشداق جوانب الفم . وإنما يكون ذلك لرحب شدقيه / الشنب : رونق الأسنان وحسنهما / الفلج : فرق بين الثنايا / دقيق المسربة : الشعر المستدق من الصدر إلى السرة / البادن : ذو اللحم / المتماسك : الذي يمسك بعضه بعضا / الكراديس : رءوس العظام . يريد غليظ العظام والكردوس كل عظم عليه لحم / شثن الكفين والقدمين : الشثن : الغليظ وهذا من صفة النبي ﷺ التمام وأنه ليس هناك استرخاء / سائل الأطراف : طويل الأصابع / عبل الذراعين غليظهما / خمصان الأخمصين : متجافي أخمص القدم / التقلع : رفع الرجل بقوة / التكفؤ : الميل إلى سنن المشي وقصده . ويتكفأ : يتمايل في مشيته . وهذا مدح في المشي ؛ لأنه لا يكون إلا عند تؤدة وحسن مشي / الهون : الوقار / الذريع : الوسع الخطو / الصبب : العلو . وقوله في صبب . الصبب: الحدور . والماشي يترفق / آثرنا أن نورد ثلاثة أوصاف للنبي من ثلاث مصادر مختلفة . ومن غريب الأمر أن الثلاثة مصادر تكاد تكون متطابقة . وإن كان هناك اختلاف فيرجع إلى الواصف وليس الموصوف . أو يرجع لاختلاف مشاعر

وأحاسيس الواصف حينما وصف ، وأظن أن مشاعر المحيطين بالنبي تكاد تكون متشابهة ، فهي مزيج من مشاعر الاجلال والاحترام والتوقير والحب " لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى . فيقول غير ما قال آنفا ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين " [١٥٠]

٥ أولا : الوجه :

الوصف هنا يدل على أنك أمام شخص يطيب لك أن – ليس أن تنظر إليه فحسب – تديم النظر إليه ، أن تمضي بعض الوقت تتملى تلك الملامح والقسمات لا لشيء إلا لأنك تشعر بنوع من الراحة والانبساط والانشراح ، مثل إدامتك النظر إلى أي شيء حولك جميل في الطبيعة ، مثل زهرة متفتحة ، شجرة ظليلة ، القمر وهو في ذروة اكتماله ، البحر ، السماء الزرع الأخضر ، الطير محلقا على صفحة السماء الزرقاء .. إلخ .

مع هذا الوجه وما ينطق به وما يوحي به ، لا تشعر أنك تديم النظر فحسب بل أنت منجذب إليه انجذابا إراديا ؛ لأنه يعمر أو يرضي جوانب ظمأى في النفس الإنسانية ، تلك السمات والملامح مفعمة بالحياة والحيوية المتجددة دوما ، وكانت (أم معبد) موفقة حينما قالت (قسيما) فهناك فرق دقيق بين القسامة والوسامة ، فالوسامة هي الحسن والجمال ، والقسامة أيضا بالإضافة أن هذا الحسن والجمال ثابت دائم موجود في كل ظرف وحال بمعنى أنك لا تمل ولا تسأم من النظر إليه لأنه كل لحظة نظر يعطيك شيئا جديدا ، تشعر أنك على درجات سلم ترتقي درجة إثر درجة وكلما ارتقيت ازددت قربا من نبع أو مصدر للإحساس بالراحة أو الرضا .

ولكن ألا نعد ذلك الوصف نوعا من المبالغة ، أو هو وصف المحب لمن أحبه ؟

١٥٠- عبقرية محمد – الأستاذ عباس محمود العقاد – صفحة (١٦٢)

وإذا كان ، فهذا لأن الرسول أهل للحب ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليس هناك أي مبالغة ، لأن ما في داخل الرسول من مشاعر وأحاسيس من خير وحب لبني الإنسان انطبعت على أسارير وصفحة وجهه .ما في داخل نفس الرسول من صفاء وطهر ونقاء وسماحة وود ورحمة وشفقة وحنان وعطف وبر وحدب وتسامح ورأفة وكرم وسخاء وكرامة وعزة وإباء وشموخ كل هذا – ولا شك – لن تجد له نظيرا أو مثيلا في نفس أي بشر يسير على الأرض غير نفس رسول الله .وكل تلك المشاعر – ولا شك – سيكون له نصيب وأثر على الوجه ، إذن من المنطقي أنك لن تصادف وجها كوجه رسول الله ، ولا نقصد جمال الوجه ، ولكن نقصد دلالة وإمارات وسمات كل تلك المعاني على ملامح الوجه ، وأن يكون الوجه بمثابة معبر يعبر بك إلى تلك المعاني الراقية السامية الجميلة ، فنحن لا نحب الوجوه في حد ذاتها ، ولكن نحب ما تدل عليه وتجسده من معان ، بدليل أنك تحب أن تنظر إلى وجه ما في حالة ما ، وتكره أن تنظر إلى نفس الوجه في حالة أخرى ، إذن حينما يقول الواصف له : (تشع عيناه الدعجوان الواسعتان جاذبية وسحرا) و (ظاهر الوضاءة أبلج الوجه وسيما قسيما في عينيه دعج) و (يتلألأ وجه تلألؤ القمر ليلة البدر) لا نجد في هذا أي مبالغة من أي نوع ، بل هذا وصف في غاية الواقعية وفي منتهى الصدق ، وهل يستطيع أحد أن يجرد هذا الوجه الكريم من كل تلك المعاني ؟ وهل يستطيع أحد أن ينفي أن كل تلك الملامح والسمات التي كان يتمتع بها رسول الله ؟ إن مجرد ذكر اسم رسول الله كفيل أن ينشر في نواحي النفس ودروبها مشاعر الأمن والسكينة والراحة والاطمئنان والرضا والوداعة والصفاء والطهر والنقاء ، نعم ، أن مجرد ذكر اسمه يرقق النفس ويلين مشاعرها ، بل يجعلها تذوب رقة وحنانا .

فما بالك لو وقع نظرك على وجهه الكريم ؟

٥ ثانيا : اللون

كثير من الوجوه تمر بك أو تمر بها ، تصادفك أو تصادفها ، فلا تثير فيك أي إحساس أو شعور من أي نوع ، فهي لا تجذبك لأنها ليس لها أي صدى أو وقع في نفسك ، بل قد تنفرك وتبعدك عنها أو تبتعد عنها ، وهناك من الوجوه من تجذبك نحوها ، وتتأملها طويلا باحثا عن سر الجاذبية ، وقد تحار في ذلك ،لأنك لم تعثر عن هـ'' الذي جذبك ، وتجد مشقة في بحثك هذا ، وبعد ذلك قد تجد ما تبحث عنه ، وقد لا تجد ، وإذا وجدته فقد لا يرضيك لتفسير سبب جاذبيتك له أو إستهوائك له وربما تكون أنت الذي أضفيت من عندك على هذا الوجه مسحة من الجمال ، فهذا الجمال أو التناغم صاعد من نفسك أنت ، لأنك في شوق أن ترى وجها جميلا فشوقك وظمؤك للجمال ، أضفي على هذا الوجه ما أضفى ، وهناك من الوجو ن يستدرجك فى هدوء وتؤدة من خلال تلك الهالة المحيطة به ،مثل ضوء القمر الذي يجذبك بكل رفق ودعة لترفع وجهك إلى السماء باحثا عن منبع ومصدر هذا الضوء ثم تمضي بعد ذلك وقتا ليس بالقليل متأملا هذا الجرم السماوي في عليائه وما يبعثه فى نفسك من مشاعر الأنس والألفة ، كذلك لون وجه رسول الله ، فهو بمثابة الهالة التي يجذبك ضوؤها لتقودك إلى ملامح الوجه ، فلون الوجه ليس بالأسمر وليس بالأبيض ،وإنما زهرى اللون ، ويقال رجل أزهر : أي أبيض مشرق الوجه والأزهر الأبيض المستنير ،وزهر: تلألأ وأشرق ،وزهر: حسن وأبيض وصفا لونه والأزهر: كل أبيض صاف مشرق مضيء ، والأزهر : اللبن ساعة يحلب وهو الوضح الناهض الصريح " قال شمر : الأزهر من الرجال الأبيض العتيق البياض النير الحسن وهو أحسن البياض كأن له بريقا ونورا يزهر كما يزهر النجم والسّراج" [١٥١] وكأن اللون غلالة رقيقة شفافة تظهر ملامح هذا الوجه كأجمل وأفضل وأحسن ما يكون الظهور ، وكأنه دعوة صريحة لا تقاوم لتأمل ملامح الوجه .

١٥١- لسان العرب صفحة (١٨٧٧).

ثالثا : الطول والقامة:

لا يمكن أن ندرج الرسول بين طوال القامة ، ولا يمكن أن نعده من ضمن قصار القامة ،وإنما كان وسطا . فالغالبية العظمى من ولد آدم لا هم من الطوال ولا هم - كذلك - من القصار ، وكأن الرسول لن يكلف الناس أن يرفعوا رؤوسهم أو يمدوا أعناقهم ليسمعوا عنه أو يتحدثوا إليه . أو يحنوا رؤوسهم ليتلقوا عنه ، فهو لم يتميز عن الغالبية من الناس . وكان معتدل الخلق بادنا ليس بالنحيف ، وكان متماسكا ليس بالمتهالك أو الرخو أو الضعيف ، مستوي البطن والصدر ، عريضا

رابعا : الهامة والشعر:

كان الرسول ضخم الرأس عظيم الهامة ، مبسوط الجبين مرسل الذقن عالي العنق ، وهذا يتناسب ويتناغم مع طول الرسول ومع بقية الأعضاء من ناحية ، ومن ناحية أخرى يدل على كثرة تلافيف المخ وكبر حجمه . أما شعره فقد كان أسود شديد السواد، كثيف مسترسل سواء كان ما يخص الرأس أو اللحية أو الحواجب أو رموش عينيه أو الذراعين أو أعلى الصدر.

خامسا:الذراعين والقدمين:

كان الرسول طويل الزندين ، عبل الذراعين أي ضخمهما، شثن الكفين ، أي في أنامله غلظ بلا قصر ، ويحمد ذلك في الرجال ؛ لأنه أشد لقبضتهم وأصبر لهم على المراس . وكانت راحته رحبه وأصابع يديه طويله .و هذا يدل على القوة والبأس وأن حياة الرسول لم تكن حياة مرفهة أو ناعمة . أوهو- ﷺ - اختار مثل تلك النوعية من الحياة الخشنة مثل بداية نشأته ،وطبعت ذلك على يديه . وكان الرسول يرى أن الحياة كفاح وجهاد مستمر لا ينقطع ،وقوله (اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم) يفسر موقفه من الحياة .والقدمين - أيضا - لم يكن بهما إعوجاج أو إنحراف بحيث لو سكبت ماء عليهما لم يبقى عليهما أي أثر ، فهو مسيح القدمين ، كذلك القدمين ليس بهما أي عيب من أسفلهما ، ما نقول عليه في العصر الحديث (فلات

فوت) فقد كان أخمص الأخمصين ، والأخمص :باطن القدم ، وما رق من أسفلها وتجافى عن الأرض . وإذا كان خمص الأخمص بقدر لم يرتفع جدا ولم يستو أسفل القدم جدا فهو أحسن ما يكون ،فإذا استوى أو ارتفع جدا فهو عيب ، والمقصود أن اخمصه معتدل الخمص ، وهذا الأمر يؤثر تأثيرا شديدا في اعتدال واستواء الجسم وسهولة واستقامة حركته .

- سادسا :مشيته :

لكل شخصية طريقة في السير والمشي ، فالقوى له طريقته ، كذلك الضعيف له طريقته ، وللمتكبرطريقته ، وللمتواضع طريقته ، وقد نهى القرآن وذم طريقة معينة في المشي ، كذلك مدح ورغب في طريقة أخرى في المشي ، فطريقة المشي لها دلالة نفسية وسمة من سمات الشخصية ، وكان للرسول الله – ﷺ أسلوب مميز ومعروف به في طريقة مشيته . فهو كان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام كأنما ينزل من مكان عال ،وكان يغلب على طريقته في المشي الوقار والتؤدة والهون ولكن في قوة ونشاط وحيوية . وكأنه أمامه هدف وغرض ومقصد واضح المعالم. يريد أن يصل إليه في أسرع وقت ومن أقرب طريق ، وكأنه لا يريد أن يبدد أي لحظة من عمره بدون أن يزداد إقترابا من هذا الهدف والمقصد . توجد قوة قدسية داخله تدفعه وتحثه أن يصل إلى هدفه ويكمل رسالته . أو أن الرسول دائما وأبدا مشغول البال والفكر، وعقله وفكره لايهدأ ولا يقف أو يكف لحظة عن العمل ، وحركاته تساير حركة فكره وعقله . وكانت تلك المشية مميزة عرف بها رسول الله دونا عن بقية الصحابة .

- سابعا الصدر :

تتوقف أمور كثيرة ومصيرية في حياة الإنسان العادي على سلامة صدره وأمر الهدى والضلال متعلقة بهذا الأمر. يقول الله – عز وجل – في كتابه الكريم

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٢٥.

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الزمر: ٢٢.

وإذا كان هذا شأن الصدر مع الإنسان العادي ، فإن الشأن مع الرسول أكثر أهمية ، لأن أمور الدعوة ، وما يتعرض الرسول له من أزمات ومآزق ومحن وشدائد في حاجة إلى صدر يتسع لكل هذا وأكثر. وقد وصف الرسول بأنه عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ، وهذا الوصف يتناسب ويتوافق ويتناغم مع بقية أوصاف أعضاء رسول الله ﷺ . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، يدل على عظيم وجليل دور ومهمة هذا الجزء من بنية وكيان رسول الله ، لذلك تكرر ذكره أكثر من مرة في القرآن الكريم ، ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف ٢

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ هود ١٢

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ الحجر ٩٧

ولكي لا تنال الأزمات والمحن من صدر رسول الله ، تدخلت العناية الإلهية بشرح صدر رسول الله . ومن معاني الشرح : البسط والسعة والحفظ والفتح والبيان والفهم والكشف ، وقد خاطب الله عز وجل معلنا لرسوله تلك المنة العظيمة التي التي إمتن بها عليه ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ الشرح: ١

" والمراد بشرح الصدر هنا : توسعته وفتحه ، لقبول كل ما هو من الفضائل والكمالات النفسية ، وإذهاب كل ما يصد عن الإدراك السليم وعن الحق والخير والهدى .

وهذا الشرح يشمل الشق البدني لصدره - ﷺ - كما يشمل الشرح المعنوي لصدره - ﷺ - عن طريق إيداعه الإيمان والهدى والعلم والفضائل "[152]

إذن هنا حدث معنوى كان له أثر مادي ، أو تهيئة وإعداد مادى في بنية الرسول لإستقبال عطاء وفيض رباني " لقد صرح الله - عز وجل - في كتابه بأن شرح صدره ﷺ فقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ الشرح ١ ، وشرح الصدر يعني التوسعة والقدرة على الاستيعاب وصحة الفهم وأريحية النفس واطمئنانها مما يعطي صاحب هذه الصفة القدرة على التلقي والفهم وبيان المراد في طمانينة وثبات وكل هذه المعاني من متطلبات الرسالة ، يقول الشيخ محمد عبده : ((الشرح هو التوسعة والبسط ولقد كان شرح الصدر وسعته عند العرب دليل القوة وعظم المنة وكثيرا ما كان يفتخر مفتخرهم بعظم صدره ولهم الحق لأنه - أي شرح الصدر - يعطى الأحشاء فسحة للنمو مع الراحة الجسدية والنفسية فالقوي قاهر لما ينتابه فهو في مسرة وحضور رأي دائما لا يضيق زرعه بأمر لذلك كنوا بشرح الصدر عن المسرة وانبساط النفس إلى الفعل والقول "[153]

وفي هذا السياق يمكن أن نفهم المرويات التي تكررت عن شق صدر رسول الله أكثر من مرة وهو في الثانية من عمره ، وهو في العاشرة ، وبعد البعثة إبان رحلة الإسراء والمعراج ، ولا يعنينا - هنا - إن كان الشق ماديا أو معنويا ، فالأمر على أهمية عظيم وخطر هذا الجزء من بنية وكيان الرسول ﷺ " ومن خلال كلام الشيخ محمد عبده السابق ندرك أن الله عز وجل بشق صدر رسوله محمد ﷺ وشرحه قد جمع له الكمالين الجسدي والنفسي ، ولهذا نقول إنه لا تنافي إطلاقا بين شق الصدر المعنوي بمعنى تطهير القلب وتنويره وجعله منبسطا منشرحا لا حرج

١٥٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم - الجزء الخامس عشر د. محمد سيد طنطاوي - صفحة (٤٣٦)

١٥٣- مقال بعنوان (إعداد الله لرسول محمد) د.الشبراوي محمد عبد الهادي الجهوري - مجلة منبر الإسلام - فبراير - مارس - (٢٠١٠) ربيع أول (١٤٣١)

فيه اضرار ولا ضيق وبين شق الصدر الحسي وتطهيره وتنقيته وإحداث الراحة النفسية والاطمئنان القلبي والرضا النفسي والهداية العقلية كما هو واضح في تنزيله ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام، ١٢٥ - ١٥٤

٥ الثامن: الصوت

قالت (أم معبد) أن في صوته - ﷺ - (صَحَل)، أي بُحُوحَةٌ، الصَّحَل هوالبُحّة وألا يكون حادا، " وفي حديث ابن عمر: أنه كان يرفع صوته بالتلبية حتى يَصْحَلَ أي يَبَحّ. وحديث أبي هريرة في نبذ العهد في الحج: فكنت أنادي حتى صَحِلَ صوتي؛ قال الراجز:

فلم يزل ملبيا ولم يزل
حتى علا الصوت بحوح وصَحَل
وكلما أوفى على نشذ أهل

قال ابن بري: وقد صَحِل حلقه أيضا، قال الشاعر:
وقد صَحِلَت من النوح الحلوق

والصَّحَل: حدة الصوت مع بَحَح، قال اللحياني: الصحل من الصياح قال: والصحل أيضا انشقاق الصوت وألا يكون مستقيما يزيد مرة ويستقيم أخرى قال: والصَّحَلُ أيضا أن يكون في صدره حشرجة ".١٥٥

وهذا الصوت يعطي إحساسا بالشجن والحزن، فهل تلك البحة في صوت رسول الله قد ولد بها أم هي طرأت عليه من كثرة ما مر به من أحزان ومحن وشدائد؟ أم من كثرة قراءة القرآن؟ هل هي راجعة إلى سبب من تلك الأسباب أم أنها راجعة إلى كل تلك الأسباب مجتمعة؟

١٥٤- المصدر السابق – صفحة (٤٥- ٤٦)
١٥٥- لسان العرب – ابن منظور – صفحة (٢٤٠٥)

أيما كان الأمر، فإن تلك الصفة في الصوت تجعله يجد طريقه بكل يسر وسهولة إلى النفس ؛ لأنه يشيع فيها الرقة والشجن والحزن والصفاء، مع هذا الصوت يشعر المستمع بالهدوء والهدهدة والطبطبة والمواساة والتعزية . هذا الصوت صدى لما في النفس - المتحدث والمستمع على حد سواء - وهذا ما يجعل الصوت أليفا ومألوفا . بسرعة وبدون مقدمات يزيل كل الحجب والموانع والمسافات بين المتحدث والمستمع .إن نبرة صوت المتحدث لك - وليس مضمون وفحوى الكلام - كفيلة أن تقنعك بكل حرف وكل كلمة . وكفيلة في نفس الوقت أن تثير في نفسك الكثير من الإرتياب والشكوك . والأمر لا يقف عند حد اقتناع من عدمه ، ولكن الصوت كفيل أن يوقظ في النفس الإنسانية - بل يفجر - ينابيع المشاعر والأحاسيس . والذين أمنوا بالرسول من الصحابة لم يؤمنوا كلهم اقتناعا بما في القرآن من دلائل وبراهين دالة على صدق الرسول ، لأنهم كانوا شرائح شديدة الاختلاف من ناحية والعلم والثقافة والإدراك والمعرفة . أظن أن الكثير قد آمنوا بالرسول لوقع حديث الرسول في أنفسهم ... نعم إن "الوليد بن المغيرة المخزومي" قد هتز وأعجب إعجابا بالقرآن حتى قال (والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى) وقد قال الوليد ما قاله ؛ لأنه عليم بدروب الكلام ومسالك الفصاحة ، ولذلك أكد أنه ليس بكلام بشر .ولكن غير الوليد بن المغيرة والذي لم يؤتى ما أتاه الوليد من معرفة بالفصاحة والبلاغة آمن بمحمد وعدم علمه وإدراكه للفصاحة والبلاغة لم يضره ولم يمنعه من الإيمان ، فالعلم بالفصاحة والبلاغة هنا لم ينفع الوليد ، والجهل بها لم يضر من آمن بمحمد ، لأن الكثير لم يعرضوا كلام محمد على عقولهم ، وإنما عرضوه على قلوبهم ، لا بل كلام محمد استولى على نفوسهم واستحوذ عليهم . فهم حينما كانوا يستمعون إلى النبي موصولون كأقرب ما يكون من النبع والمصدر وهو ملك الوحي . فلا يمكن أن نتأثر

بالقرآن الآن كما كان يتأثر الصحابة وهم يستمعون إلى الرسول وهو يتلو عليهم القرآن ،وهذا يدل على أن صوت رسول الله كان يتنوع ويتغير حسب المعاني القرآنية ويعطي لكل مقام ما يناسبه ويلائمه ويوافقه من نبرة الصوت . علوه وانخفاضه ومن حدته وشدته . ومثل هذا الصوت . وما به من بحه وانشقاق لا يكون جهوريا ، بدليل أن الرسول كان يندب أحد الصحابة ليبلغ عنه . مثلما حدث في حجة الوداع حينما كان (ربيعة بن أمية بن خلف) يبلغ عنه .

- تاسعا : منطقه

كان ﷺ ضليع الفم . ومن معانيه سعة الفم وقوته . والعرب تحمد عظم الفم ؛ لأنه يتيح لصاحبه التمكن والتحكم في النطق . وكان الرسول يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه . فهو يعطي لكل حرف من حروف الكلمة حقها التام والموفور بدون أن يطرأ على الحرف أو الكلمة اعوجاج أو انحراف . وطالما الفم واسع وقوي فجهاز النطق ومكوناته في أكمل وأتم صورته ويؤدي وظيفته على خير وجه ، أضف إلى ذلك سلامة وانتظام وصحة أسنانه . ولا ننسى أنه نشأ في بادية بني سعد وكان يفتخر بذلك " نشأ في بني سعد ورتبته في قريش عالية . فجمع من الكلام رونق الحضارة . وجزالة البادية .وأيد ببراعة خصه بها من حكم بتوفير قسمه : لأن مدده الوحي الذي لا يدركه البشر ولا يحيطون بشيء من علمه . كان صلى الله حلو المنطق . في كلامه ترتيل . كلامه فصل لا نزر ولا هذر . بين . يحفظه من جلس ويفهمه كل من سمعه . كأنما هو درر نظمت . لا فضول فيه ولا تقصير . ولو عده العاد لأحصاه .

نزه الله منطقه عن التكلف وتعقيد الصوت والتمتمة والفأفأة والرثة والتنطع والتمحلق والتفيهق .وجعل منطقه مساوقا لطبيعة اللغة. فتم له إحكام الضبط وإتقان الأداء : فجاء لفظه مشبعا ولسانه بليلا وتجويده فخما . ومنطقه عذبا . ومصداق ذلك قول عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم

هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه ، وفي رواية أخرى : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه "[١٥٦] .

لذلك كان كل من يجلس إليه مستمعا كان يؤخذ بمنطقه ، ويدرك على الفور أنه لا يجلس أمام إنسان عادي ، ومن هنا تبدأ شخصية النبي تبسط سلطانها وتأخذ المستمع إلى عالم أخر من الصفاء والطهر والنقاء والأمن والسلام ، ومع تلك الثقة والوضوح والصراحة والمكاشفة التي تنضح من كلماته لا يملك المستمع إلا أن يقتنع اقتناعا كاملا ، لا بل هو يتجاوز تلك المرحلة إلى التسليم الكامل والخضوع التام لما يقول به النبي ، لذلك قالوا عن القرآن أنه سحر ، وقالوا – من ضمن ما قالوا – على محمد أنه ساحر ، والسحر والساحر يتابى على كل عقل أو منطق ،كل ما يمكن أن يقال أنه قوة جارفة من شأنها أن تضعف أو تزيل أي مقاومة تحاول أن تمنع التأثر بهذا المنطق النبوي " ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ،ولا يحتج إلا بالصدق ،ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ،ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ .

كان ﷺ يقتصر في كلامه على قدر الكفاية : فلا يسترسل فيه هذرا ولا يحجم عنه حصرا ، وهو فيما عدا حالي الحاجة والكفاية أجمل الناس صمتا

١٥٦- محمد المثل الكامل – محمد أحمد جاد المولى – صفحة (٩-١٠)

وأحسنهم سمتا ، حلا كلامه فاستعذبته الأفواه حتى بقى محفوظا في القلوب مدونا في الكتب ، سالما من الزلل " [157].

○ عاشرا: محضره

لكل تلك الصفات التي ذكرناها والتي لم نذكرها لرسول الله - ﷺ - تميزت شخصيته بالثراء والتنوع والغنى ، وإن كل إنسان يجد فيه ما يبتغيه من مثل عليا ، ومن هنا كثر وتعدد وتنوع أصحاب رسول الله ، فمنهم السياسي ومنهم رجل الدولة ومنهم المفكر ومنهم الشاعر ومنهم المحارب ومنهم القائد ومنهم الزعيم ومنهم العابد ، وكل هؤلاء كانوا يجدون في رسول الله العلم والهدى والنور والرشاد ويلتمسون منه ما ينفعهم في دنياهم ودينهم ، وكان يطيب لهم أن يجلسوا إليه ويمكثوا وألا يفارقونه ليلا أو نهارا ، وهذا راجع إلى شخصيته وما يتمتع به سمات وصفات وخصائص تزيل من النفس الإنسانية تلك الحجب والموانع ، التي تجعلها بل تدفعها دفعا إلى أن تحب وتخلص في هذا الحب ، إخلاصا لا مثيل ولا نظير له وبدلا من أن نسأل لماذا كانوا يحبون رسول الله ، نسأل ولماذا يكرهونه ؟!

هذا إنسان صبغ من خير وجمال ، يحب كل الحب والخير للإنسان ، يتمنى من قرارة نفسه أن يهدى الجميع – بلا استثناء – إلى الهدى والرشاد ، عامرة نفسه بالعفو والتسامح والصفح والود ، غن كل ما ينشده الإنسان الخير السوى من معاني الرقي والسمو ، يجده مجسدا في شخصه ، حتى الذي كان يبغضه بغضا شديدا ، ما هى إلا مدة وجيزه ويجد الحب يتسرب إلى قلبه ، فيتحول البغض الشديد إلى حبا جارفا . " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله - ﷺ - خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ((ثمامه بن أثال سيد أهل اليمامة ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج رسول الله - ﷺ - فقال ما عندك يا ثمامة بن آثال ؟ فقال : عندي يا محمد خير إن تقتلني تقتل ذا دم وإن

١٥٧- المصدر السابق – صفحة (١٢)

تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه رسول الله حتى الغد . ثم قال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فقال رسول الله : أطلقوا ثمامة . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد ان محمدا رسول الله . يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك . فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي . والله ما كان دين أبغض من دينك فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلي والله ما كان أبغض إلي من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلي ، وإن خيلك أخذتني وانا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ؟ قال لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ " .

الإنسان لا يكذب نفسه ، لا سيما وإذا كان الأمر متعلقا بمصير الإنسان في هذا الوجود ، وقد اعترف " ثمامة " أنه لا يبغض أحدا على وجه الأرض مثل بغضه محمدا ، وهي بالنسبة له حقيقة وجدانية لا يجد " ثمامة "غضاضة أن يجهر بها ، لا لشيء إلا لأن تلك الحقيقة - الوجدانية - تحولت في مدة وجيزة إلى النقيض ، وهذا ليس عيبا ، ولكن العيب كل العيب أن يتسم الوجدان بالثبوت والجمود والتحجر فدلالة الحياة أن تتغير المشاعر من الكرة إلى الحب أو من الحب إلى الكره ، أو تزداد المشاعر تألقا وقوة ، المهم أن يكون هناك حركة ، فوران ، عنفوان ، فالإنسان الحي كتلة من المشاعر والأحاسيس ، تزداد عند البعض توهجا واشتعالا وتأججا ، وتقل عند البعض. حتى إذا فارقت الحياة الجسد انطفأت وغاضت تلك المشاعر والأحاسيس .

إذن الأمر أكبر وأعظم أن أصف محضر الرسول أو الرسول بأنه لطيف المحضر ،أو أنه أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، ولكن

مدى تأثير وأثر شخصية محمد فيمن يقف أمامه ، فيمن يحدثه ويحاوره ويناقشه فيمن تلامس يداه يد محمد ، فيمن تلتقي نظراته بنظراته ، تلك شخصية إنسان تعامل وتعاطى واقتبس من ملك الملائكة ، الروح ، جبريل عليه السلام ، وتنزلت عليه كلمات الله ، وتجمعت فيه صفات وسمات وخصائص استدعت أن تختاره العناية الإلهية ليكون بشيرا ونذيرا للناس ، وأن يكون حاملا لأعظم وأبقى وأخلد معجزة على مر الزمان ، وهو القرآن ، وتجمعت واجتمعت الألسنة والقلوب والأفئدة على الشهادة له ، بعدما شهد الله – عز وجل – له .

نحن في العصر الحديث إذا قدر لفرد منا أن يقابل ذا منصب رفيع قد لا ينام ليله ، وقد يتعثر ويتلجلج ويرتج عليه ، ويتفصد عرقا ، أثناء المقابلة ، ويخرج من المقابلة غير مصدق نفسه أنه قد قابل ذا الشخص ، ويحفظ كلماته كلمة كلمة ويحتفظ بكل إشاراته وإيماءاته ، ويعتبر ان تلك المقابلة – المقابلة في حد ذاتها – نوعا من التكريم له ، وكل ما يتمتع به الشخص الذي قابلته ، أنه ذو منصب، مديرا كان أو محافظا أو وزيرا أو رئيسا ، وأن هذا المنصب يضفي على صاحبه هالة من الكبرياء والاعتداد والثقة ، وكل هذا – ولا شك – له تأثيره فيمن حوله . فما بالك لو كانت تلك المقابلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.

لاننكر ولا أحد ينكر أن لشخصية الرسول تأثير عظيم فيمن حولها ، وإن هذا التأثير كفيل أن يزيل أي نوع من المقاومة أو العناد أو الإصرار على الوقوف موقف العداء أو الخصام لرسول الله ، فالرسول يستطيع أن يعرف ما يدور داخل نفس محدثه او من يقف أمامه او يقابله ، ليس هذا فحسب ، بل يدرك الطريقة أو الأسلوب الأمثل للتعامل ، أو العلاج الناجع لمرضى النفوس ، والمواقف كثيرة في سيرة الرسول ، والتي أثبتت وبرهنت علمه وخبرته ودرايته بما يطبب تلك النفوس وموقفه من فضالة خير مثال على ذلك " وفضالة بن عمير بن الملوح عندما أراد قتل النبي وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله أفضالة ؟

قال : نعم فضالة يا رسول الله .

قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شيء ، كنت أذكر الله

فضحك النبي ثم قال : استغفر الله .

ثم وضع النبي – ﷺ – يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضاله يقول " والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه " .

أراد قتل النبي

ومن يريد قتل إنسانا ، أي إنسان فإن ، إيماءاته وإشاراته إلتفاتته. نفضح ما يحاول أن يخفيه .

فما بالك من يريد قتل نبيا ، ومن ؟ رسول الله .

لا شك أن الرسول عرف وأدرك ما ينويه ويدبره هذا الرجل .

أو أنه ألهم ذلك .

أيما كان الأمر ، فإن الرسول سمح للرجل أن يقترب منه ويدنو ، ليس هذا فحسب بل مد يده الشريفة إلى صدر الرجل ، ما هي إلا لحظات حتى برأ صدرالرجل من كل كراهية للرسول ، ليس هذا فقط بل تحول هذا الكره إلى حب ليس هذا فقط بل صار الرسول أحب خلق الله إلى قلب الرجل .

كل هذا حدث ، وما كان له أن يحدث لولا أن الرجل في حضرة الرسول .

وليس لنا أن نسأل لم وكيف تحولت كل تلك الكراهية إلى كل هذا الحب .

ولكن لنا أن نسأل لم الكره لشخص رسول الله ؟

فليس هناك سبب واحد لكراهية رسول الله .

وتوجد ملايين الأسباب لحب رسول الله ، بل ليكون أحب المخلوقات إلى قلب الإنسان ، أي إنسان .

وأن تقف أمام رسول الله ، أو يقف أمامك رسول الله ، أوتحدث رسول الله أو يحدثك رسول الله ، وتلمس رسول الله أو يلمسك رسول الله ، فجأة يمتلأ كيانك بهذا الوجود النوراني ، والحضور الملائكي الرباني ، في تلك اللحظة يبدأ تاريخ الوجود الحق للإنسان ، من لحظة أن ينبض القلب بحب هذا الشخص الكريم وإنها لأشرف وأطهر نبضة ينبض بها قلب المخلوق .

صلاة ، وسلاما..... عليك يار رسول الله .